

الادارسة في المغرب

• حسن الأمين

نجا إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب "ع" من مجزرة "فخ" ومضى حتى وصل المغرب. واستقر في مدينة "وليلي" عند كبيرها إسحاق بن محمد بن عبد الحميد الأوربي وذلك غرة ربيع الأول سنة ١٧٢، فدعا ابن عبد الحميد عشيرته أوربة لبيعته فكانوا أول من بايعه يوم الجمعة ٤ رمضان سنة ١٧٢ وبذلك كان ابتداء الدولة الإدريسية العلوية في المغرب.

وفي عهد إدريس الأول هذا انتظم للدولة جيش كثيف أخضع من حوله من بلاد المغرب الأقصى لا سيما البلاد التي لم تكن دخلت في الإسلام بعد كبلاد (تادلا) وحصون (فندلاندة) و(مديوقة) و(مهلولة) وقلاع (غياثة) وبلاد (فازان). ثم تقدم فأخضع تلمسان في المغرب الأوسط.

وبهذا تمكن أمره واستقر حكمه وأرسى قواعد الدولة، ثم فوجيء بالاغتيال بالسهم وقام بعده ولده إدريس بن إدريس. وازدادت الدولة تمكنا يوماً بعد يوم واستقام أمر المغرب لإدريس الثاني وعظم سلطانه وكثرت جيوشه وأتباعه. وتميز عهده بأنه لم يعد يتركز على البربر وحدهم بل أقبل علي العرب من إفريقية والأندلس قيسيين وازديين ومذحجين ويحصبين وصدفيين وغيرهم وصاروا وزراء وقضاته.

وهنا ضاقت العاصمة (وليلي) عن استيعاب وجود الدولة الناشئة فبنى إدريس مدينة (فاس) وانتقل إليها ثم توسع في ملكه فدخل مدينة (نفيس) ومدينة (اغمات) وفتح سائر بلاد المصامدة. وكانت دعوة الخوارج منتشرة بين البربر وزناتة فقضى عليها واستصفى

المغربيين مقتطعاً لهما عن الخلافة العباسية من السوس الأقصى إلى وادي شلف. ثم توفي عن ست وثلاثين سنة بعد أن صفا له حكم المغرب واستقرت دولته وتوطدت امامته. وقام بعده ولده محمد بن إدريس وكان له أحد عشر أخاً فلما ولي قسم بلاد المغرب بين اخوته وجعلهم ولاية على أقطارها وأقام هو في فاس. ويقول صاحب الاستقصاء: "ضبطوا أعمالها وسدوا ثغورها وأمنوا سبلها وحسنت سيرتهم".

ولكن توزيع الولاية بين الاخوة الذي أراد به محمد المساواة بين اخوته ومشاركتهم له في الحكم دفعاً لما يمكن أن يحدث من التنافس، كان له عكس ما أراد فوقفت بين بعضهم فتن أدت إلى التقاتل والتحارب أحياناً، وبعد وفاة محمد بن الذليل تولى الأمر ابنه علي ابن محمد المعروف بجيدرة. ويقول صاحب الاستقصاء: "كانت أيامه خير أيام" ويقول ابن أبي زرع: "سار سيرة أبيه وجده في العدل، فكان الناس في أيامه في أمن ودعة". وولي بعده أخوه يحيى بن محمد. ويقول ابن خلدون: "امتد سلطانه وعظمت دولته وحسنت آثار أيامه واستبحر عمران فاس وبنيت بها الحمامات والفنادق للتجار وبنيت خارجها الارباض ورحل إليها الناس من الثغور القاصية". وقال ابن أبي زرع: "قصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية وجميع بلاد المغرب".

وفي أيامه بني مسجد القرويين بفاس. وتوالى بعده كل من يحيى بن يحيى (ابنه) ثم علي بن عمر بن إدريس ثم يحيى بن القاسم بن إدريس ثم يحيى بن إدريس بن عمر بن إدريس. ويقول عنه صاحب الاستقصاء: "كان واسطة عقد البيت الادريسي، أعلاهم قدراً وابعدهم ذكراً وأكثرهم عدلاً وأغزرهم فضلاً وأوسعهم ملكاً، وكان فقيهاً حافظاً للحديث ذا فصاحة وبيان، بطلاً شجاعاً حازماً ذا صلاح ودين وورع" وقال ابن خلدون: "لم يبلغ أحد من الادارسة مبلغه في الدولة والسلطان إلى أن طما عليه عباب العبيدين القائمين بإفريقية فأغرقه".

واندرجت دولة الادارسة في دولة الفاطميين بظهور عبيد الله المهدي أول خلفائهم فزحف قائده مصالة سنة ٥٠٣ إلى فاس وحاصرها، فصالحه يحيى على البيعة للخليفة الفاطمي ثم كانت لهم محاولات للاستقلال بأمر المغرب كمحاولة الحسن بن محمد بن القاسم بن إدريس المعروف بالحجم، فقد استطاع أن يفاجئ فاس ويستولي عليها ويمد سلطانته على أكثر قبائل البربر وإلى عدة مدن مثل مدينة لواقعة وصفرون ومدنين ومداين مكناسة والبصرة حتى استقام له الأمر بالمغرب ولكن ذلك لم يطل أكثر من سنتين، ملك

بعدهما موسى ابن أبي العافية مدينة فاس في أحبار تطول. ويقول صاحب الاستقصاء: "لما استولى موسى ابن أبي العافية على فاس والمغرب شمر لطردهم الإدارسة عنه فأخرجهم من ديارهم وأجلاهم عن بلادهم عن شالا وأصيلا وغيرهما من البلاد التي كانت في أيديهم، ولجأوا بأجمعهم إلى قلعة (حجر النسر) مغلوبين على ملكهم مطرودين عن دار عزهم التي أسسها سلفهم).

وقلعة حجر النسر هذه قلعة حصينة تقع في منطقة الريف، وكان يسود الريف فرع من الإدارسة هم أحفاد عمر بن إدريس فانضم النازحون إلى بني عمهم في الريف وظلوا على سيادته يتداولونها لا مستقلين، بل تحت ظل الفاطميين تارة وتحت ظل الأمويين الأندلسيين تارة أخرى إلى أن زالت سيادتهم وانطوى حكمهم من المغرب نهائياً. وكان آخرهم الحسن بن كنون.

قال ابن أبي زرع: "كانت مدة ملك الإدارسة بالمغرب من يوم إدريس بن عبد الله وذلك يوم الخميس السابع من ربيع الأول سنة ١٧٢ إلى أن قتل الحسن بن كنون وذلك في جمادى الأول سنة ٣٧٥ مائتي سنة وثلاث سنين سوى شهرين تقريباً.

وكان عملهم في المغرب من السوس الأقصى إلى مدينة وهران. وقاعدة ملكهم مدينة فاس ثم البصرة^(١) وكانوا يكابدون دولتين عظيمتين: دولة العبيدين (الفاطميين) بإفريقية ودولة بني أمية بالأندلس، وكانوا يزاحمون الخلفاء إلى ذروة الخلافة ويقعد بهم عنها ضعف سلطاتهم وقلة مالههم، فكان سلطانهم إذا امتد وقوي ينتهي إلى مدينة تلمسان، وإذا اضطرب الحال عليهم وضعفوا لا يجاوز سلطانهم البصرة وأصيلا وحجر النسر".

وقال السيد أمير علي: أن سلطان الإدارسة توزع بين الفاطميين والأمويين الأندلسيين، فالقسم الشرقي من مراكش سقط في أيدي الفاطميين والغربي في أيدي الأمويين.

وقال (سيديو) في كتاب تاريخ العرب: "ظل الإدارسة قابضين على ما ملكوه من سنة ٨٠٣ إلى ٩٤٩ م مقيمين في البلاد التي هي مدينة لهم بجليل الأعمال، فأسسوا مدينة فاس التي أضحت مسجدها مقدساً لدى جميع الأهالي المحاورين، ونال شهرة عظيمة في زمن قليل واشتملت مدينة فاس على مدارس ومكتبات تساوقت هي والحركة العلمية التي حمل لواءها بنو العباس في الشرق، وغدت مستودعاً واسعاً بين عرب إسبانيا وعرب إفريقيا".

(١) البصرة هذه كانت مدينة كبيرة في المغرب بنيت في أوائل القرن الثالث الهجري ثم خربت أواخر القرن الرابع.

والحقيقة أن قيام الدولة الادريسية في المغرب أدى إلى نتائج جلية، فإن بعد تلك الرقعة لم يُثبت قدم الإسلام فيها وحال دون انتشاره انتشاراً واسعاً، فبفضل الادارسة انتشر الإسلام حتى بلغ كل مكان^(١)، وبفضلهم قامت الحركات العلمية فأنشئت المدارس والمكتبات، كما توسع العمران وأسست المدن مما أدى إلى التوسع في تحضير البلاد وازدهار المدينة.

ولولا الظروف القاهرة التي أحاطت بهم فحصرت جهودهم وشلت همهم لكان لهم شأن أبعد من هذا الشأن. على أن العمل الأكبر الذي يتوج كفاح الادارسة هو تعميمهم الإسلام بين القبائل البربرية وترسيخ قدمه فيها، حتى أصبحت من أشد قبائل المغرب الأقصى شكيمة وأحسنها بلاء في الدفاع عن بيضة الإسلام، وكان أكثرهم على غير ملة الإسلام، لأن المسلمين الفاتحين قبل ذلك كانوا يلمون بقبائل البربر الماما في طريقهم إلى الأندلس، ولما وصل إدريس الأكبر إلى المغرب أقام في بلادهم وتزوج إليهم وولد له أولاد كثير من أم بربرية اندمجوا هم وأحفادهم من بعدهم في القبائل البربرية، ويقول غير واحد من المؤلفين والمؤرخين في هذا الصدد، - أي في صدد اندماج أعقاب إدريس الأول في قبائل البربر "تبربر ولده" وهم - أعني هؤلاء الادارسة المندمجين في البربر - الذين قاموا بنشر الدعوة إلى الدين الحنيف في تلك الأقطار الشاسعة فأنشأوا دولتين من أشهر الدول الإسلامية في تلك البلاد^(٢).

ومن أكبر العوامل التي ساعدت على نجاح دعوة الادارسة واعتناق البربر للإسلام اعتناقاً عاماً على أيديهم ما كان يلقاه البربر من عمال الأمويين والعباسيين من الظلم الفادح والاستغلال اللئيم مما يتنافى مع الإسلام ويصوره بأبشع الصور، لذلك ظل المغرب كله، الأقصى منه^(٣) والأوسط^(٤) والأدنى^(٥) في ثورات دائمة لا يقر له قرار، وكان أحراره يفتشون عن متنفس لهم، فكثيراً ما كانوا يؤيدون دعوة الخوارج ويثورون معهم، وللدلالة على فساد الحكم الأموي وسوء المعاملة التي كان الأمويون يعاملون بها الرعايا ومنهم قبائل البربر فيبعدونهم بذلك عن الإسلام ويدفعونهم للثورات نقص بعض مارواه المؤرخون

(١) يقول صاحب الاستقصاء عن ادريس الأول: لما استوثق له الأمر زحف إلى البربر وأكثرهم على غير دين الاسلام فأسلموا على يده.

(٢) الشيباني في ابن الغوطي.

(٣) ما يعرف اليوم بدولة المغرب.

(٤) الجزائر.

(٥) تونس.

مما كان مظهر الحكم يومذاك، فمن هذا أن يزيد بن أبي مسلم دينار (مولى الحجاج الثقفي) جعله الحجاج كاتبه وصاحب شرطته. وفي عهد يزيد بن عبد الملك ولاه يزيد على بلاد المغرب، فسار هناك بسيرة الحجاج، ومن أفعاله أن الحجاج كان قد وضع الجزية على رقاب الذين أسلموا من أهل السواد وأمر بردهم إلى قراهم ورسائيقهم على الحالة التي كانوا عليها قبل الإسلام.

وأراد يزيد بن أبي مسلم أن يفعل عين ما فعله الحجاج ويطبق ذلك على البربر. فاستفزع البربر هذا الأمر ولم يصبروا عليه فتآمروا فيه وأجمعوا على قتله فقتلوه^(١).

وفي عهد هشام بن عبد الملك، كان عمر بن عبد الله المرادي والياً على طنجة والمغرب الأقصى، فأساء السيرة في البربر وأراد أن يخمس من أسلم منهم وزعم أنه الفيء فنفرت قلوب البربر وأحسوا أنهم طعمة للحرب^(٢) وقد كان الولاة بعامة يرهقون البربر بما يطالبونهم به من المطالب الظالمة، فمن ذلك مثلاً أنه كانت تشوقهم الجلود العسلية اللون، فكانوا يتغالون في جمع ذلك حتى كان القطيع من الغنم يهلك ذبحاً لا لشيء إلا لاتخاذ الجلود العسلية من سخاله ولا يوجد فيها مع ذلك إلا الواحد وما قرب منه، ويقول صاحب الاستقصاء: "فكثر عبثهم بذلك في أموال البربر فأجمعوا على الانقضاض". والجلود العسلية هي مثل مما كانوا يطلبونه، فقد كانوا يفتنون بطلب أنواع طرف المغرب. بمثل هذه الأساليب.

فلما وصل إدريس الأكبر وقامت دولة الادارسة عرف البربر أن الإسلام الصحيح ليس هو الذي كان يمثل أولئك الحكام الطغاة، وأنه ليس إلا عدلاً وتسامحاً ورحمة فأقبلوا يدخلون فيه أفواجا على أيدي الادارسة أحفاد محمد وعلي.

وقد خلفت هذه القبائل البربرية دولة الادارسة بعد ذلك في مراكش وما يليها من بلاد الأندلس وأسست غير دولة من دول البربر كدولة الموحدين وبني مرين والمرابطين ولكنها لم تعيش كما عاشت دولة الادارسة. ولبعض هذه الدول البربرية مواقف مشهورة في الدفاع عن بيضة الإسلام في الأندلس والنكاية بمن هاجمها من طغاة الفرنجة مثل ملوك ارغان وقشتالة في غرب الأندلس. وقد توارثت هذه القبائل إلى اليوم ولاء أهل البيت والإخلاص لهم، وما أكثر بيوت العلويين على اختلاف بطونهم في المغرب، وما زالوا يتمتعون بحرمة وافرة^(٣).

(١) الطبري.

(٢) الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى.

(٣) محمد رضا الشبيبي في كتابه عن ابن القوطي.

"ثقافة الادارسة"

قل من العلماء والباحثين في "البلدان" من لا يعرف الشريف الادريسي^(١) صاحب "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق" ويعد هذا الكتاب من أمتع ما ألفه البلدانيون المسلمون في موضوعه، وللادريسي مصور جغرافي مشهور نشر باللاتينية والعربية.

ويعرف هذا الادريسي بالشريف الصقلي لأنه عاش في صقلية وقد يقال له القرطبي لأنه درس في قرطبة واختص بصاحبها "رجار" كبير "النورمان" الذي أنشأ بصقلية وما إليها من الجزر ملكاً عريضاً ودولة فرنجية قامت على أنقاض دولة بني الأغلب والدولة الفاطمية بعد ذلك. وكان "رجار" قد عني بمحاسبة المسلمين والاستفادة من علوم علمائهم أمثال صاحبه الشريف الادريسي.

وهناك إشراف ادريسيون يقال لهم "آل الصقلي" اختصوا بصناعة الطب في حاضرة القطر التونسي وتوارثوها خلفاً عن سلف، والغالب أنهم من ذرية الشريف المذكور. وأصل هذا البيت الادريسي من سبتة ثم من مراکش، هاجر بعضهم إلى صقلية وبعضهم إلى تونس وإلى غيرها من آفاق الأقطار المغربية.

هذا ومن أجل مؤلفات العالم الادريسي المذكور أو هو أجّلها على الإطلاق كتاب علمي في النبات سماه "جامع أشتات النبات" يورد فيه أسماء النباتات في لغات عدة قد يوصلها إلى أكثر من عشر لغات شرقية وعربية. ومن هذا الكتاب يستنتج أن الادريسي حاذق في علم النبات والمواليد وعلوم الطبيعة والطب أكثر من حذقه في ناحية الجغرافية والبلدانيات. والكتاب يدل على علم واسع وتحقيق بالغ، وهو من المخطوطات النادرة. والشريف الادريسي بالإضافة إلى ذلك رحالة جاب آفاقاً شرقية وغربية غير قليلة كما تدل مؤلفاته على ذلك وهو أيضاً شاعر مجيد.

(١) هو أبو عبد الله محمد بن محمد الادريسي ولد سنة ٤٩٣ و لم تعرف سنة وفاته.